الفصل الثانى

ابن رُشد في عصره

٥٢٠ ــ ٥٩٥ هجرية ــ ١١٢٦ ــ ١١٩٨ ميلادية

١ ــ حياة ابن رشد

أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد هو الفيلسوف الوحيد فى أسرة من الفقهاء ، والقضاة ، كان أبوه قاضياً وكان جده قاضى القضاة بالأندلس ، وله فتاوى مخطوطة لا تزال محفوظة فى مكتبة باريس ، تدل على ملكة النظر التى ورثها عنه حفيده ، وقد كانت تعهد إليه مع القضاء مهام سياسية بين الأندلس ومراكش فكان يضطلع بها على الوجه الأمثل ، وتوفى سنة ٥٢٠ للهجرة قبل مولد حفيده بشهر واحد .

وقد وردت ترجمة الحفيد الحكيم فى مراجع متفرقة من كتب الأدب والتاريخ ، وترجم له ابن أبى أصيبعة فى كتابه « طبقات الأطباء » ، وهو مطبوع . وترجم له الذهبي والأنصارى وابن الأبار فى كتب مخطوطة ، نشرت منها مقتبسات كافية بنصها العربى فى ذيل كتاب لرينان عن ابن رشد والرشدية Averroés et L'Averroisme طبع بباريس الطبعة الثالثة سنة ١٨٦٦ واطلعنا عليها فى تلك الطبعة ، وعليها جميعاً نعتمد فى تلخيص ترجمة الفيلسوف .

نشأ بقرطبة وتعلم الفقه والرياضة والطب ، وتولى القضاء بإشبيلية قبل قرطبة ، واستدعاه الخليفة المنصور أبو يعقوب وهو متوجه إلى غزو ألفونس ملك أرجوان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فأكرمه واحتفى به وجاوز به قدر مؤسسى الدولة ــ دولة الموحدين ــ وهم عشرة من أجلاء العلماء ، فأجلسه فى مكان فوق مكان الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص الهنتاتى وهو صهر الخليفة (زوج بنته) . . . ويظهر أن شهرة القاضى بالفلسفة قد جعلته موضع النظر

مع الحذر ، فلما استدعاه المنصور ظن أهله وصحبه أنه عازله ومنكل به ، فلما خرج من عنده بعد تلك الحفاوة أقبل عليه صحبه يهنئونه فقال لهم قولة حكيم ، « والله إن هذا ليس مما يستوجب الهناء به ، فإن أمير المؤمنين قربني دفعة إلى أكثر مما كنت أؤمل فيه أو يصل رجائي إليه » .

وكلمة كهذه تكشف عن بصيرة الرجل وصدق رأيه ، كما تكشف عن سليقة المعلم فيه ، فإنه لو كان من أهل المنفعة بالمناصب لسرّه أن يؤمن الناس بزلفاه عند الخليفة ، ولكنه علم الحقيقة فآثر الإرشاد بتعليمها على الانتفاع بما اعتقده الناس من وجاهته ، وأيقنوه من عظم منزلته عند ذوى السلطان .

قال ابن الأبار[1] « تأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمةلم يصرّفها فى ترفيع حال ولا جمع مال ، إنما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة ومنافع أهل الأندلس عامة » .

وقد صدقت فراسة ابن رشد ، فإن الخليفة لم يلبث أن نكبه وأقصاه — كما سيأتى بيانه فى الفصل التالى — وأمره بملازمة « اليشانة » وهى قرية كانت قبل ذلك مأوى لليهود . قيل إنه نفى إليها لأنه كان مجهول النسب بأرض الأندلس وكان المظنون به أنه من سلالة بنى إسرائيل ، وهو ظن لا سند له من الواقع على الإطلاق ، وقد شهد ابن جبير لجده بالتقوى والصلاح وصحة الدين حين هجاه فى نكبته فقال :

لم تلزم الرشد يا ابن رشـــد   لمـــا علا فى الزمان جدك
وكنت فى الـــدين ذا رياء   ما هكذا كان فيـــه جدك[2]

والمتواتر من جملة أخباره أنه كان شديد الإكباب على البحث والمذاكرة ، لم يصرف ليلة من عمره بلا درس أو تصنيف إلا ليلة عرسه وليلة وفاة أبيه ، وربما شغله ذلك عن العناية ببزته[3] أو إدخار المال لأيام عوزه[4] ، فكان يبذل العطاء لقصادة ويلام أحياناً على البذل لمن لا يحبونه ولا يكفون عن اتهامه فيقول :

---

(١) انظر ترجمته فى « أزهار الرياض فى أخبار عياض » .
(٢) جدك الأولى بمعنى ، الحظ والثانية : أبو الاب أو أبو الام .
(٣) البزة : الثياب .
(٤) العوز : الحاجه والضيق .

إن إعطاء العدو هو الفضيلة . إما إعطاء الصديق فلا فضل فيه ، وقد أعطى مرة رجلا أهانه وحذره من فعل ذلك بغيره ، لأنه لا يأمن بوادر غضبه .

على أنه كان يسامح فى أمر نفسه ولا يسامح فى أمر غيره ، ومن ذلك قصته مع الشاعر ابن خروف حين هجا أبا جعفر الحميرى العالم المؤدب ، فقد أوجع الشاعر ضرباً وأنذره ألا يعود لمثلها ، ولو كان عفوه عن المسيئين إليه من قبيل المداراة لكانت مداراة الشعراء الذين يهجون غيره أقرب وأحجى[١] .

وأثر عنه فى قضائه أنه كان يتحرج من الحكم بالموت ، فإذا وجب الحكم أحاله إلى نوّابه ليراجعوه ، وقد اجتمع له قضاء الأندلس والمغرب وهو دون الخامسة والثلاثين .

ولم يذكر قط عن القاضى الفيلسوف خبر من أخبار التبسط لمجالس اللهو والطرب مما استباحه جلة أبناء عصره ، ومنهم طائفة من العلماء والحكماء ، بل كان يتعفف من حضور هذه المجالس ، وبلغ من تعففه عما لا يراه خليقاً بعلمه ومكانه من القضاء أنه أحرق شعره الذى نظمه فى الغزل أيام شبابه ، وعلى هذا كان يحفظ الجيد من الشعر ويرويه فى مواطن الحكمة وشواهد المثل ، وحكى عنه أبو القاسم بن الطيلسان أنه كان يحفظ شعرى حبيب[٢] والمتنبى ويكثر التمثل بهما فى مجلسه ويورد ذلك أحسن إيراد .

قال ابن الأبار : « كان على شرفه أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً » .

وكان هذا الخلق منه مطمع الطامعين فى تواضعه وفى كرمه . دخل إليه أبو محمد الطائى القرطبى فتلقاه قائماً كعادته فى لقاء زائريه فقال الشاعر :

قد قام لى السيد الهمامُ ... قاضى قضاة الورى الإمام
فقلتُ قم بى ولا تقمْ لى ... فقلما يؤكل القيام

وظاهر أن هذه الخلائق الطيبة قد تغنى المعلم أو الفيلسوف أو القاضى فى صناعته ، ولكنها لا تغنى جليس الملوك فى صناعة المنادمة والملازمة ، بل لعلها تحرجه عندهم وتعرضه لإعراضهم ومقتهم . لأن هذا التواضع فيه لم يكن عن ضعة ولا عن استكانة ، بل كان عن كرم وكرامة وشعور بالمساواة بين الناس

---

(١) أحجى : أعقل .
(٢) المقصود : أبو تمام حبيب بن أوس .

فى المجاملة وحسن المعاملة ، فكان يخاطب الخليفة فى مجلسه فيقول له : يا أخى ! وكانت أمانة التعبير العلمى أحق عندى بالرعاية من زخرفة القول فى ألقاب الملوك والأمراء حيث لا محل لها بين تقريرات العلماء والفلاسفة ، فلما شرح كتاب الحيوان لأرسطو زاد عليه عند ذكر الزرافة أنه رآها « عند ملك البربر . . » . . . ومثل هذا اللقب هو الصدق الذى يجمل بالعالم فى درسه وبحثه ، ولكنه لم يكن جميلا عند الرجل الذى يسمى نفسه ويسميه من حوله بأمير المؤمنين وأمير الدين ، ولما بلغ الأمر مسمع هذا الأمير لم يغن عن ابن رشد أنه تمحل[١] المعاذير وقال إنه قد أملاها « ملك البرين » فصحفها النساخون حين نقلوها إلى ملك البربر ... إذ كان سم الوقيعة قد سرى مسراه ووافق ما كان فى نفس الأمير من الغيظ لمناداته باسم الإخاء ، فلم يدفع عنه عذر النديم ما جلبه عليه صدق العلماء .

أو لعله قد وافق فى نفس الأمير غيظاً آخر لم يكن صاحبنا الفيلسوف يلتفت إليه أو يحسبه مما يعاقب عليه ، فقد كان يصادق أخا الخليفة (أبا يحيى) والى قرطبة كما كان يصادق الخليفة . . . فلم يعدم واشياً يقول وسامعاً يسمع إن وراء هذه الصداقة للأخ عداوة مستترة لأخيه ، يوشك أن تنكشف عن تمرد وعن ولاء للمتمردين .

ولما أراد الخليفة أن ينكبه لم يذكر فى أسباب نكبته سبباً من هذه الأسباب بطبيعة الحال ، بل أحال على الدين تبعة هذه النكبة كما سيأتى بيانه ، وأعلن من ذنوب الفيلسوف ما هو ذنب الأمير فى باطن الأمر ، لأنه تعلل عليه بإدمان النظر فى كتب القدماء ، وقد كان أبو الأمير هو مغريه بالنظر فيها ومعالجة شرحها وتيسيرها لطلابها .

٢ ـ نكبته وأسبابها

يحتاج المؤرخ فى كل مصادرة فكرية أو دينية إلى البحث عن سببين : أحدهما معلن والآخر مضمر ، فقليلا ما كان السبب الظاهر هو سبب النكبة

---

(١) تمحل الشىء : احتال فى طلبه .

الصحيح ، وكثيراً ما كان للنكبة — غير سببها الظاهر — سبب آخر يدور على بواعث شخصية أو سياسية تهم ذوى السلطان ، ويسرى هذا على الشعراء كما يسرى على الفلاسفة ، ويسرى على الجماعات كما يسرى على الآحاد .

لقد نكب بشار ولم ينكب مطيع بن إياس ، وكلاهما كان يتزندق ويهرف[1] فى أمور الزندقة بما لا يعرف ، ولكن بشاراً هجا الخليفة ومطيع لم يقترف هذه الحماقة ، فنجا مطيع وهلك بشار .

ولم يكن ابن رشد أول شارح لكتب الأقدمين ، فقد سبقه ابن باجة إلى شرح بعضها وإن لم يتوسع فى هذا العمل مثل توسعه ، ولكن ابن باجة كان يحسن مصاحبة السلطان وابن رشد لم يكن يحسن هذه الصناعة ، فنكب ابن رشد ولم ينكب ابن باجة ، ولم يغن عن الفيلسوف المتكوب أنه شرح الكتب كما تقدم بأمر من أبى الخليفة .

وقد كتب المؤرخون كثيراً عن اضطهاد اليهود فى دولة الموحدين ، وقيل إنهم كانوا مضطهدين تعصباً من رؤساء الدولة لمخالفتهم إياهم فى الدين ، وحقيقة الأمر أن الخليفة كان يتهم الذين تحولوا منهم إلى الإسلام كما كان يتهم الباقين على دينهم ، وكان يقول : لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين ، ولكنى متردد فى أمرهم ، وقد كان بعضهم على صلة بخدمة الإفرنج وجاء فى كتاب « بغية الملتمس » أنه كان فى صحبة جيش الأذفنش تجار من اليهود وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين .

فلم يكن اضطهاد هذه الطائفة لمخالفتها فى الدين ، ولكنها اضطهدت لما خامر أصحاب الدولة من الشك فى مساعيها الخفية ، ومنها ما يخشى ضرره على الجيش فى إبان القتال ، وأما فى غير هذه الحالة فلم يكن ثمة اضطهاد ولا مصادرة وكان من اليهود من ارتقى إلى مناصب الوزارة .

ولا نعتقد أن نكبة ابن رشد كانت شذوذاً من هذه القاعدة فى بعض أسبابها على الأقل إن لم نقل فى جميعها ، وقد مر بنا أن المنصور أنكر منه مخاطبته

---

(١) يهرف : يتكلم عن غير خبرة .

إياه بغير كلفة ، وأنه ذكره فى كتاب الحيوان باسم ملك البربر ، وأنه كان وثيق الصلة بأخيه الذى كان يخشى من منافسته إياه ، وبعض هذه البواعث كاف لاستهداف الفيلسوف لغضب المنصور ، ولكن المعروف عن أمراء الموحدين أنهم كانوا يتحرجون من إيقاع العقاب بالناس لأمثال هذه الأسباب ، فمن الراجح أنه تعلل لعقاب ابن رشد بعلة ترضى ضميره وترضى جمهرة الشعب بالذريعة المقبولة فى أمثال هذه الأحوال .

فمن هذه الذرائع « أن قوماً ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدعى معه الكفاءة فى البيت وشرف السلف سعوا به عند أبى يوسف ووجدوا إلى ذلك طريقاً بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التى كانت يكتبها فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم : فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة . . . فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة ، فأستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة ، فلما حضر أبو الوليد رحمه الله — قال له بعد أن نبذ إليه الأوراق : أخطك هذا ؟ فأنكر . . . فقال أمير المؤمنين : لعن الله كاتب هذا الخط وأمر الحاضرين بلعنه[1] . . . »

ونحن نعلم اليوم بعد دراسة أساطير اليونان أنهم كانوا يسمون الزهرة ربة الحب وأنهم أخذوا هذا من البابليين ، وأن كلمة فينوس — أى الزهرة — مأخوذة من كلمة بنوت أى بنت وكانت فاؤها تكتب باء فى بعض الكتب اليونانية القديمة وأن هذا كله لا يتعدى المجاز كما يقول القائل منهم رب البحر وربة العاب وربة الغناء وأشباه هذه الأسطورات . ولا يبعد أن الأسطورة قد رويت فى كتب ابن رشد كما نقلها عن اليونان على هذا المثال . . . أما أن يكون ابن رشد معتقداً ربوبية الزهرة ربة الحب أو ربة غيره فذلك بعيد ، جد بعيد .

وقيل فى أسباب النكبة إن حساد ابن رشد دسوا عليه أناساً من تلاميذه يستملونه شرح الكتب الفلسفية فشرحها لهم ونقلوها عنه كأنها من رأيه وكلامه وأشهدوا عليها مائة شاهد ثم رفعوها إلى الخليفة وطلبوا عقابه لانحلال عقيدته ، فنكبه وألزمه أن ينزوى فى قرية اليشانة (لوسينا) بجوار قرطبة ولا يبرحها .

---

(١) « المعجب فى أخبار المغرب » .

فإذا صح حدوث هذا فى إبان اشتغال الخليفة بحرب الإفرنج وتوجسه من أهبة الخارجين عليه فى الخفاء فالأرجح أنه هو ذريعة النكبة . لأن الغضب الدينى يحتدم فى إبان العداوات الدينية ، فلا يتحرج الخليفة من إرضاء الناس وإرضاء ضميره وإرضاء هواه فى مثل هذه الحال ، وقد نكبت مع ابن رشد طائفة من القضاة والفقهاء وذوى المناصب لا يبعد أن يكون الخليفة قد ظن بهم الظنون وشك فى ممالأتهم لمنافسيه ومناظريه ولم يتسع له الوقت لاستقصاء مظان التهمة ، ولا كان فى وسعه أن يسكت عن قضية الثائرين باسم الغيرة على الدين ، فلحقت به النكبة من هذا الطريق .

وجاء فى ترجمة الأنصارى له : « حدثنى الشيخ أبو الحسن الرعينى رحمه الله ، قراءة عليه ومناولة من يده ، ونقلته من خطه قال : وكان قد اتصل — يعنى شيخه أبا محمد عبد الكبير — بابن رشد المتفلسف أيام قضائه بقرطبة وحظى عنده فاستكتبه واستقضاه ، وحدثنى رحمه الله وقد جرى ذكر هذا المتفلسف وما له من الطوامّ فى محادّة الشريعة فقال : إن هذا الذى ينسب إليه ما كان يظهر عليه ، ولقد كنت أراه يخرج إلى الصلاة وأثر ماء الوضوء على قدميه ، وما كدت آخذ عليه فلتة إلا واحدة ، وهى عظمى الفلتات . وذاك حين شاع فى المشرق والأندلس على ألسنة المنجمة أن ريحاً عاتية تهب فى يوم كذا وكذا فى تلك المدة تهلك الناس ، واستفاض ذلك حتى جزع الناس منه واتخذوا الغيران والأنفاق تحت الأرض توقياً لهذه الريح ، ولما انتشر الحديث بها وطبق البلاد واستدعى والى قرطبة إذ ذاك طلبتها وفاوضهم فى ذلك ، وفيهم ابن رشد — وهو القاضى بقرطبة يومئذ — وابن بندود . فلما انصرفوا من عند الوالى تكلم ابن رشد وابن بندود فى شأن هذه الريح من جهة الطبيعة وتأثيرات الكواكب قال شيخنا أبو محمد عبد الكبير — وكنت حاضراً — فقلت فى أثناء المفاوضة : إن صح أمر هذه الريح فهى ثانية الريح التى أهلك الله تعالى بها قوم عاد ، إذ لم تعلم ريح بعدها يعم إهلاكها ، قال : فانبرى إلى ابن رشد ولم يتمالك أن قال : والله وجود قوم عاد ما كان حقاً فكيف سبب هلاكهم ؟ فسقط فى أيدى الحاضرين وأكبروا هذه الزلة التى لا تصدر إلا عن صريح الكفر والتكذيب

لما جاءت به آيات القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . »

وقصة عبد الكبير هذه لم يرد لها ذكر فى سياق الاتهام والمحاكمة ، وقد كان الاستناد إليها أولى من تصيد التهم واختلاس الأوراق والبحث فيها عن المعانى المتشابهة ؛ لأن الكلمة قد بدرت من ابن رشد — إذا صحت قصة عبد عبد الكبير — على مسمع من « حاضرين » كثيرين .

ومن الغريب حقاً أن تبدر تلك الكلمة من ابن رشد مع التزامه لشعائر الدين قبل النكبة وبعدها ، وقد كان صاحب القصة يراه — كما قال — يخرج إلى الصلاة وعلى قدميه أثر الماء ، وقد اعترف كاتب المنشور الذى أذاع حرمان ابن رشد بهذا الحرص على التزام الشعائر فقال : « إنهم يوافقون الأمة فى ظاهرهم وزيهم ولسانهم ويخالفونهم بباطنهم وغيهم وبهتانهم » . . . وقد ثابر على حضور الصلاة فى المسجد بعد النكبة وأخبر عنه أبو الحسن بن قطرال فقال : « إن أعظم ما طرأ عليه فى النكبة أنه دخل وولده عبد الله مسجداً بقرطبة — وقد حانت صلاة العصر — فثار لهما بعض سفلة العامة فأخرجوهما » . . . وكان يقول فى درس الطب : « من اشتغل بعلم التشريح إزداد إيمانا بالله » .

فصدور الكلمة التى نقلها عبد الكبير عن ابن رشد غريب غاية الغرابة من رجل يظهر ذلك الورع ويلتزم الشريعة ذلك الالتزام ولو كان يفعل ذلك من باب الرياء والمداراة ، فإن متعمد الرياء أحرص على بدواته[1] وسهواته من المخلص الذى يأمن الريبة ولا يتكلف الاحتراس مع الناس .

إلا أن التمحل باسم الدين لم يكن بالنادر فى ذلك الزمن ، وقد عرفنا شواهده المكتوبة فى كلام رجل من أهل العلم كالفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان . فإنه رضى عن ابن باجة فقال عنه إنه « نور فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع . تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار . »

ثم سخط عليه فقال « هو رمد عين الدين ، ونكد نفوس المهتدين ... نظر فى تلك التعاليم وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم [illegible]

---

(١) البدوات جمع بدوة : ظواهر الأشياء .

فإذا جاز هذا من رجل كالفتح بن خاقان فى رجل يحسن مسايرة الناس كابن باجة ، فليس بالبعيد أن يصيب ابن رشد طائف من تلك التهم وهو فى تزمته وصدقه للعلم ومكانته العالية عرضة لنقمة الكاذبين والحاسدين .

ولا نعنى أن كتبه لم يكن فيها ما يساء فهمه أو ما يفهمه المخالف فينكره ، ولكننا نعنى أن سر التهمة كلها بعيد من هذه العلل ، وأن للنكبة باطنا غير ظاهرها ، ليس من العسير أن نستشفه من مجمل أحواله وأحوال زمنه وأميره .

فمن مجمل أحواله أنه كان رجلا يحسن المساجلة ولا يحسن المنادمة ولا يبالى تزييف لغة « البلاط » فى سبيل تحقيق لغة العلم ورفع الكلفة من مجالس الباحثين فيه ، ولو كانوا من الملوك والأمراء ، ومما يصح أن يشار إليه من لواحق هذا أنه غفل عن مكانة الغزالى عند ملوك الموحدين ، وهو أستاذ أستاذهم الأكبر ، فرد عليه دفاعاً عن الفلاسفة ولم يبال فى هذا الدفاع أن ينسب إليه المغالطة.

ومن مجمل أحوال الزمن أنه كان زمن العداوات الدينية وكانت أخطار الحروب فيه بين المسلمين والإفرنج على أشدها ، فكان من أصعب الأمور على الحكام أن يتعرضوا لغضب العامة إذا وقع فى وهم هؤلاء أن قاضياً من أعظم القضاة يشتغل بالعلوم التى يرتابون بها ويحسبونها من الكفر والضلالة ، وقد اشتهر عن ابن رشد أنه كان مصادقاً لأخى الخليفة ، وتبين من تاريخ تلك الفترة أن المنافسة فيها على الملك كانت حرباً ضروساً لا تنقطع فى وقت من الأوقات ، فلا يبعد أن ينكب الخليفة ابن رشد اتهاماً له بمشايعة أخيه واتهاماً لأخيه بمصاحبة الفلاسفة وإضمار الكفر والضلالة .

أما عفو الخليفة عن ابن رشد بعد ذلك فليس تفسيره بالعسير ، فإنه قد عفا عنه عقب عودته من الأندلس إلى مراكش ، وبعد زوال الغاشية ووضوح الحقيقة فى ظنونه بأخيه وجلساء أخيه ، وقد قيل إنه أقبل على الفلسفة التى تجنبها حيناً فأكثر من الاطلاع على كتبها ، فإذا وافق ذلك شفاعة الشافعين فى الحكيم المغضوب عليه فقد وضح سرّ النكبة وسرّ العفو ولم يكن فيه غريب غير مألوف من خلائق الملوك وخلائق الدهماء ، مع الحكماء والفضلاء .